

This paper will investigate the image of Bedouins and the “Bedouin Chiefs” through analyzing selected traditional oral lyrics, folk wedding songs and mourning chants. The main goal of this study is to capture the conflicted image of Bedouin tribes in the Egyptian folk tradition, fathoming how the Egyptian collective unconscious preserved the portrayal of the Bedouin Chief reflected in oral folk tradition. I will also focus on the opposition between that image and the stereotypical one dominating by European orientalist. Classical Arab historians and European orientalist explorers have portrayed Arab Bedouin tribes known as badw or Arab tribes, who settled or migrated across Egypt and North Africa throughout various historical periods equivocally and aporetically. Historians and Western scholars have imparted multiple accounts and vivid descriptions of these settled Arab tribes, they depict the long cultural bitter conflict between urban lifestyles and traditional Bedouin culture, and epitomize the polarization and conflict between urbanized and nomadic culture and associated negative images towards Bedouins. For example, many historians and Western scholars the oppression and injustices suffered by Egyptian peasants or the conflict between peasants and Arab Bedouin tribes in Egypt. Contrary to these historical observations, the portrayal of Bedouin Chiefs in the popular collective unconscious and oral traditions was not necessarily negative but was rather imbued with respect in many instances and with idolization in others. I argue that, the Egyptian folk tradition was more tolerant to and welcoming of the Arab or Bedouin tribes as a tile c in the Egyptian cultural and social mosaic. My critical analysis will define the characteristic of Bedouin Chiefs” , and will investigate the image of Bedouins and the “Bedouin Chiefs” through analyzing selected traditional oral lyrics, folk wedding songs and mourning chants. The main goal of this study is to capture that conflicted image of Bedouin culture in

the Egyptian folk tradition, fathoming how the Egyptian collective unconscious preserved the portrayal of the Bedouin Chiefs reflected in oral folk tradition and opposition between this image and the negative, stereotypical one dominating the official history of the sociopolitical notes.

Keywords: Arabic Narratology, Image of "Bedouin Chiefs", Egyptian folk, Oral tradition, Bedouin tribes

Citation: Al-Tahawy, M. Autumn & Winter (2019-2020). investigate the image of Bedouins and the "Bedouin Chiefs" through analyzing selected traditional oral lyrics. Studies in Arabic Narratology, 1(1), 92-128. (In Arabic)

Studies in Arabic Narratology, Autumn & Winter (2019-2020), Vol. 1, No.1, pp. 92-128

Received: February 16, 2020;

Accepted: March 4, 2020

©Faculty of Literature & Humanities, University of Kharazmi and Iranian Association of Arabic Language & Literature.



دراسات في السردانية العربية

الرقم الدولي الموحد للطباعة: ٢٦٧٦-٧٧٤٠



جامعة الخوارزمي

صورة "شيوخ العربان"

قراءة في النصوص الشعبية الشفهية المصرية

Miral.Mahgoub@asu.edu

البريد الإلكتروني:

ميرال محجوب الطحاوي

أستاذة مشاركة في الأدب العربي الحديث بجامعة ولاية آريزونا الأمريكية، مدينة تمبي، الولايات المتحدة.

الإحالة: الطحاوي، ميرال محجوب. خريف وشتاء (٢٠١٩-٢٠٢٠). صورة "شيوخ العربان": قراءة

في النصوص الشعبية الشفهية المصرية، دراسات في السردانية العربية، ١(١)، ٩٢-١٢٨.

دراسات في السردانية العربية، خريف وشتاء ٢٠١٩-٢٠٢٠، السنة ١، العدد ١، صص. ٩٢-١٢٨.

تاريخ القبول: ٢٠٢٠/٢/١٩

تاريخ الوصول: ٢٠٢٠/٢/٨

© كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الخوارزمي والجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها.

الملخص

يدرس هذا البحث صورة البدوي وشيوخ العربان في الموروث الشعبي، من خلال استقراء وتحليل عينة مختارة من النصوص الشعبية الشفهية المتداولة، مثل العديد وأغاني الأفراح وغيرها من النصوص، وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الصور المعقدة والغامضة للبدو في مصر، ورصد كيف رسم الوجدان الجماعي المصري صورة شيخ العرب في التراث الشفهي الشعبي، ويركز البحث أيضا على التعارض بين تلك الصورة وبين الصور النمطية السالبة التي تركها لنا التاريخ الرسمي عن العربان في مصر. رسم المؤرخون العرب والمستشرقون صورا متناقضة وملتبسة للعرب والعربان

الذين سكنوا مصر أو عبروا بها في فترات تاريخية متعددة، وقد ترك لنا المؤرخون والمستشرقون كتابات كثيرة تصف نوعاً من العنجهية مع الشعوب والحضارات القديمة و كيف خاضت هذه القبائل نزاعاً وصراعاً ثقافياً طويلاً مع الشعوب الزراعية المستقرة وامتد هذا الصراع بين البداوة والعمارة في فترات تاريخية طويلة، رسم البعض صورة بالغة السواد لمظالم العربان وفسادهم في أرض مصر، كذلك كانت ملاحظات الكثير من المستشرقين تركز على الجور و المظالم التي ترتكبها جماعات البدو مع الفلاح المصري، لكن على العكس من ذلك أنتج التراث الشفهي الشعبي صوراً مغايرة للعربان في مصر، وعبرت الثقافة الشعبية المصرية بشكل أكثر تسامحاً وترحيباً بوجود العنصر العربي في النسيج الثقافي والاجتماعي المصري، كما أن صورة شيخ العرب في الوجدان الجماعي الشعبي لم تكن سلبية بالضرورة، بل كانت محاطة بالتقدير والتقدير أحياناً أخرى. وفي ذلك البحث أقوم باستقراء بعض النصوص الشعبية الشفاهية من عديد وإغاني وامثال، بغرض تحليل تلك النصوص المتداولة ودراسة معالم صورة العربان في الثقافة الشعبية المصرية، وكيف رسم الوجدان الجماعي المصري صورة "شيخ العرب" في التراث الشعبي وكيف أن تلك الصورة تبدو متناقضة مع الصور النمطية والسالبة التي تركها لنا التاريخ الرسمي عن الصراع السياسي والاجتماعي بين الفلاحين و العربان في مصر.

الكلمات المفتاحية: السردانية العربية، الرواية، صورة شيوخ العربان، الفلكلور المصري، المأثورات الشعبية، التراث الشفهي، القبائل العربية، الأغاني الشعبية

المقدمة:

رسم المؤرخون العرب والمستشرقون من الرحالة صوراً ملتبسة للعربان الذين سكنوا مصر أو عبروا بها في فترات تاريخية متعددة. وقد ترك لنا المقریزی وابن إياس وابن خلدون، وغيرهم، طرقاتاً من سيرة هذه القبائل التي اجتاحت الشمال الإفريقي بعد الفتح الإسلامي، ومارست نوعاً من العنجهية والتعالي على أهل تلك الأمصار، وخاضت نزاعاً وصراعاً ثقافياً طويلاً مع الشعوب الزراعية المستقرة، وامتد هذا الصراع بين البداوة والعمران خلال فترات تاريخية طويلة، فالمقریزی؛ على سبيل المثال، رسم في صورة بالغة السواد لمظالم العربان وفسادهم في أرض مصر، وربط ابن خلدون هذا الفساد بنظريته عن البدو وطبائعهم الصحراوية التي تلتهم المدنية وتجلب الخراب للحضارات المستقرة، وكذلك كانت ملاحظات الكثير من المستشرقين تركز على الجور والمظالم التي ترتكبها جماعات البدو مع الفلاح المصري، لكن على العكس من ذلك فالتراث الشفهي الشعبي عكس صورة مغايرة للعربان في مصر، وعبرت الثقافة الشعبية المصرية بشكل مختلف عن هذه العلاقة الصراعية، كما أن صورة "شيخ العرب" في الوجدان الجماعي الشعبي لم تكن سلبية بالضرورة.

هذا البحث يركز على كشف صورة شيوخ العربان في التاريخ المكتوب ومصادره وخاصة ما ورد عند المستشرقين والرحالة الأجانب ثم مقارنتها بما ورد في التراث الشعبي المصري، ليقف على تناقض المصادر التاريخية مع الوجدان الشعبي الذي يعكس بدوره تاريخاً أدبياً موازياً ليقف على الصورة التي رسمها الأدب الشعبي ويهدف البحث أيضاً للوقوف على أسباب التقدير الذي يصل للتقديس في النصوص الشعبية لمشايخ العربان وأسباب ذلك، خاصة أثر السير الشعبية وأبطالها، وكيف تعكس تلك النصوص الشعبية المكانة التي حازها العربان في الريف المصري، والتقدير الذي كان العامة ينظرون به إليهم بوصفهم أعياناً وموثرين، ينتمون لأبطالهم الأسطوريين، كأبي زيد والسيد البدوي وغيرهما من الشخصيات التي صاغت الوجدان الشعبي المصري، وهو ما يناقض تلك الصورة التي رسمها المؤرخون وبعض المستشرقين بتصوير الصراع الاجتماعي بين العربان والفلاح المصري، وإن شئنا الدقة فإنها تعكس زاوية جديدة لتلك الصورة.

وقد اعتمد هذا البحث إلى جانب المصادر التاريخية العربية والأجنبية على الكثير من مراجع الأدب الشعبي المصري، ومصادره من أغاني وأمثال والعديد أو المراثي الشفهية التي يشيع بها العامة موتاهم.

إنه بحث في الثقافة الشعبية وعلاقتها بالتاريخ المكتوب وتحاول الوصول إلى أهمية هذا التراث الشعبي المجموع وتحليله ليقدم ذاكرة بديلة للمجتمعات القديمة، التي كتبت تاريخها الخاص شفها وحرًا وبعيدا عن التوظيف السياسي لهذا التاريخ.

عربان مصر خلفية تاريخية:

العربان الذين سكنوا ربوع مصر في هجرات متتابعة، شكّلت موجات كثيرة، اختاروا سُكنى أطرافها الصحراوية الشرقية (إقليم البحيرة وأعلى الوادي)، فنصبوا خيامهم على محطات قوافلها، واستبدلوا بـ"نجد" صحراء مصر المحيطة بالوادي من كل جانب، وعاشوا على ذلك الهامش في جيوب قبليّة، ولم يتكيفوا أو يندمجوا بسهولة مع أهل الدلتا الطينية السوداء، الفلاحين الفقراء المنهكين.

توطّنت القبائل العربية تلك الأرض، لكن أهلها لم ينسوا قطّ بطون قبائلهم، تلك التي تركوها خلفهم، أو التي نزلت إلى أقاليم أبعد. كما لم تنس تلك القبائل ماضيها، وأيامها، وعاداتها، وطبيعتها الخشنة، وحياتها المتقشفة، لم تنس ثاراتها، ولا أعرافها، ولا أحلافها، وكان الحفاظ على ذلك كله هو طوق نجاتها الوحيد من الذوبان الذي يُفنى هويتها، ويهدد وجودها. سكنت قبائل العرب أرض الوادي مُكرهَةً أو مختارة، لكنها قاومت اندماجها الاجتماعي بكل وسيلة، وحاولت صنع حاضنتها الاجتماعية القبليّة بمزيد من العزلة، والحفاظ على نقاء الدم العربي.

وقد حافظ الكثير من العربان على أصولهم العرقية ونقائهم من خلال عدة ممارسات عرفية؛ فعلى سبيل المثال، رفض العربان تزويج بناتهم بمن استفلح منهم واندمج في الحياة المصرية. يروى كلوت بك حكاية شيخ من أغنياء العربان، كان لا يميل بفطرته إلا إلى الصحراء، ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الإقامة في الحاضرة، حيث تسلم مقاليد الحكم على إحدى المقاطعات، وطلب وهو في مركزه هذا مصاهرة أحد شيوخ القبائل العربية، فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره المعيشة في المنازل "فقد خشونة البداءة، وضعفت فيه العصية والبسالة،

فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه".^(١) (كلوت بك - ٢٠١١- كما رفض العربان تزويج بناتهم بالمصريين (الفلاحين)، وكثرت الأمثال الشعبية التي تعبر عن ذلك المضمون؛ مثل قولهم: "أرميها في الرياح ولا أديها للفلاح"^(٢) (شعلان، ج ٢، ٢٠٠٣: ٢٨٢). ويبدو أن الحفاظ على النسب العربي من الاختلاط كان إحدى قضايا الحفاظ على الهوية التي خاضتها تلك القبائل، وكان الانتساب للقبائل العربية يضيف على الطبقات الوسطى المصرية نوعاً من الواجهة والاحترام، وهي المكتسبات التي ورثتها القبائل العربية من تدشينهم كطبقة أرستقراطية إبان الفتح العربي، ومن خلال شجرة انتسابهم للقبائل القرشية وللرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو شرف حرص العربان على استغلاله لتأكيد سلطتهم الروحية والعرفية على أهل البلاد، فالانتساب لتلك القبائل مرتبط بالعروبة التي هي هوية الرسول والرسالة. وقد ترجمت الأمثال الشعبية هذه العاطفة، كقولهم: "النبي عربي وبلاده بعيدة" (شعلان، ج ١، ٢٠٠٣: ٥١٤)

كان للانتساب للقبائل العربية أبعاد اجتماعية كثيرة، ويعرف التاريخ المصري حدثين يفسران أهمية هذا الانتماء القبلي في السياق الثقافي والاجتماعي المصري؛ الحدث الأول يُعرف بقضية (أهل الحرس) "١٥٨-١٩٤ هجرية،

فتحكي المصادر التاريخية قصة جماعة من المصريين أسلموا وأرادوا أن يحظوا بنفس الامتيازات الاجتماعية التي يحظى بها العربان، فذهب هؤلاء المصريون إلى قاضي مصر آنذاك، ليثبت نسبهم لإحدى قبائل أعراب الحوف الشرقي من العرب ذي الأصول الجنوبية اليمنية من قبيلة "قضاة"، وقد قبلت تلك القبيلة بالشهود لهم بهذه القرابة، وشهدوا أمام القاضي بأن هؤلاء الأفراد ينتمون إليهم، وكانت بعض القبائل من عرب الجنوب اليمنيين أقل تشدداً من القبائل القيسية في الزواج والاختلاط بأهل مصر؛ لذلك وقفت قبيلة قضاة إلى جانب أهل الحرس، فثارت القبائل العدنانية القيسية على القاضي، وانبرى شعراء ذلك الوقت في هجاء القاضي، وشهروا به لموافقته على إعطاء بعض الأسر من وجهاء المصريين ما يفيد انتسابهم للعرب، وفي ذلك قال الشاعر معلى بن المعلى الطائي، موجهاً حديثه إلى القاضي: "إذا كنت قد ألقحتهم عرباً فزوجهم بناتك" (البري، ١٩٩٢: ٣٩٧)؛ ويذكر الكندي أن القاضي البكري أمير القضاء (قاضي القضاة) مآل إلى رأي قبائل الشمال في عدم صح نسب "أهل الحرس"، ودعاهم إلى دار القضاء،

وتكررت مسألة النزاع على الأصول القبلية في حادثة تاريخية أخرى، تعرّف بقوائم العربان، أو "لجان فحص العربان"، وهي لجان لفحص العرب الذين حافظوا على عروبتهم وأنسابهم وأحسابهم، ولم يصابهروا أو يختلطوا بأهل مصر، وقد كان يتم إثبات عروبتهم أمام لجان تفحص أنسابهم القبلية. أنشئت تلك اللجان سنة (١٩١٠-١٩١١)، وتشكلت من عمد القبائل ورؤساء مجالس القرعة، وكانوا يثبتون اسم كل فرد وبصمات أصابعه، وقد يسألون الكبار منهم عن أنسابهم وأحسابهم، أو عن أعمال العرب الدقيقة، فإن عجزوا سقطت عروبتهم" (منير، ٢٠٠٩: ٢١٨)

أسهمت في تأصيل هذا التعصب القبلي، والاستعلاء على أهل البلاد من قبل العربان تلك الصور الذهنية التي كوَّنها العربي عن الفلاح المصري منذ الفتح العربي، وغدَّتْها بعض المقولات التي لا نعرف مدى صحتها، وأُجِبت عنصرية العربان تجاه الفلاح المصري (القبط)، وملخصها أن أهل مصر أهل مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة وجبن وقنوط وقلة صبر. وكما ورد عن الخليفة معاوية بن أبي سفيان "أهل مصر ثلاثة أصناف، فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس، فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب، وأما الثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين لا ناس فالمسلمة (يعنى القبط)" (المقريزي، ج١، ١٩٩٧: ١٥١)

واستفاض المقرئ في ترديد هذه المقولات عن أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم التي تكونت في مخيلة الفاتح العربي، ومنها أن «المكر عشرة أجزاء، تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس» (المقرئ، ج ١، ١٩٩٧: ١٥٠)، كما يرى أن أهل مصر يغلب عليهم الخنوة وقلة

الرجولة، وذلك لهلاك رجالها مع فرعون، فتزوجت النساء بالعبيد "فهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الرق واستولدوهن" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٤٩) كما يرى المقريزي أنه يغلب عليهم "الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر، وسرعة الخوف، والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس، وبالجملة فيغلب عليهم الشر والديّة التي تكون من دناءة الأنفس" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٣٩) وفي وصف عنصر أخلاق المصريين، قال: "الغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترّهات، والتصديق بالمحالات، وضعف الموائر والعزمات، ولهم خبرة بالكيد والمكر" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٣٦)، كما ذكر أيضا: "ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفّك ما قصّه الله، سبحانه وتعالى، من خبر يوسف، عليه السلام، ومراودة امرأة العزيز له" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٤٦).

وللنساء في مصر أمر على الرجال، فالرجل في مصر ضعيف ولا حول له في بيته "لا يبيع أحدهم ولا يشتري إلا قال: استأمرتنى امرأتى" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٤٨) ويعود ذلك طبقا للمؤرخ إلى أن "فرعون لما غرق، غرق معه أشراف مصر ورجالها، وترك وراءه النساء والعبيد، فاستولت النساء على المملكة لمدة سنتين، وتزوجن بالعبيد، واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن، فاستمر ذلك مدة من الزمان؛ ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمراء، لأنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن" (المقريزي، ج ١، ١٩٩٧: ١٤٩). لم تكن تلك النظرة الاستعلائية على الفلاح يتبنّاها العرب فقط، بل ربما كانت الصور النمطية المجحفة للفلاح المصري متأصلة في تاريخ الغزو الأجنبي لمصر عبر العصور، وما دأب المستعمر من اختزال وتعالٍ على أهل البلاد، فنالت صورة الفلاح المصري أثقال هذا التنميط الطبقي والعنصري، التي سادت في فترة من الفترات، فتعريف الفلاح في ذلك السياق الاجتماعي هو ذلك الرجل من أهل الريف، يفلح الأرض ويزرعها، ويشير صاحب "هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف" إلى مثالب ونقائص هذا الفلاح، فطبقا له "أهل الريف طبعهم كثيف وأخلاقهم رذيلة، وذواتهم هبيلة، ونساؤهم مزعجات، وذلك من كثرة معاشرتهم للبهائم" (أمين، ١٩٥٣: ٢٩٩).

لم تكن تلك الصور السلبية التي كَوَّنَهَا العربي الفاتح عن شعب مصر إلا جزءًا من صراع طويل حضاري ثقافي، رأى فيه كل شعب هذه المسالب في نقيضه الثقافي، فكما كان هناك من المؤرخين مَنْ يتشيع للجنس العربي، فقد كان هناك مَنْ يرى في تلك القبائل صورة من صور البداوة والهمجية.

تلك العلاقة الصراعية العدائية بين العرب وأهل البلدان التي فتحوها تحت راية الإسلام، تعود إلى طبيعة الاختلاف بين البدو والحضر، أهل الصحراء وأبناء الحضارات المستقرة، فالبدو - كما يرى ابن خلدون؛ على سبيل المثال - بطبيعتهم "مقتصرون على الضروري في الأقوات والملابس والمسكن، وسائر الأحوال" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٢٢)، أي تقتصر حاجاتهم على الضروري للحياة، فبحكم طبيعة حياتهم المتقشفة لم يعرفوا الترف الذي تعرفه الحضارات المتقدمة، و"لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبُعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٢٣).

وبسبب نزعاتهم الفردية تلك، ورغبتهم في الصراع والحراك والتنقل بحسب طبيعتهم الصحراوية؛ فهم عاجزون عن إقامة حضارة، وهو ما لا يمكن أن يحققه شعب لا يعرف الاستقرار، فهم اعتادوا "الرحلة والتقلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران، ومُنافٍ له" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٧٠).

، فهم بفضل طبيعتهم الخشنة، وطريقة عيشهم الطويل في البراري؛ استحكمت بهم "عوايد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خُلُقًا وجبلَةً، وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٧٠).

ومن ثم "صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران، هذا في حالهم على العموم، وأيضًا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدٌ ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون، انتهبوه" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٧٠).

والعرب إذا حكموا فهم مشغولون ليس بصلاح حال الرعية، وإنما بجباية الأموال "إنما همّهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مَغْرَمًا" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٧١) ووفقاً لابن خلدون: "تبقى الرعايا في مَلَكَتِهِمْ كأنها فوضى دون حكم، والفوضى مهلكة للبشر، مفسدة للعرمان" (ابن خلدون، ١٩٥٨: ٢٧١).

لا يقدم ابن خلدون في نظريته للبداءة والتمدن تبريراً لطبيعة وسلوك العربان في الأقطار، التي تم فتحها بالإسلام واستقرت فيها القبائل العربية، بقدر ما يقدم تفسيراً للتعالي القبلي وعدم القدرة على الاندماج من قَبْل تلك القبائل مع الشعوب ذات الثقافة الزراعية المستقرة، فأى شعوب تختلف في تكوينها الثقافي اختلافاً كبيراً مع قيم البداءة التي عاشت قروناً على الغزو والتنقل والإغارة، كما يقدم صورة مبكرة لصراع ثقافي سيتطور في بعض الأمصار الإسلامية، ليصبح سبباً في التنافر الثقافي بين العرب وسكان الأمصار من غير العرب، لكننا مع الاستشهاد بصورة العربان في فكر ابن خلدون وتاريخه، نود أن نؤكد أن هناك الكثير من النقد لرؤية ابن خلدون، التي أثارت جدلاً واسعاً حول ما شاب آرائه من تعميمات.

فُطِّع الطرق النبلاء: صورة العربان في الكتابات الإستشراقية:

تمتد الصور السلبية للعربان وشيوخهم ومجتمعاتهم القبلية وعاداتهم الاجتماعية وطباعهم الصحراوية، في المصادر التاريخية، خاصةً كتابات الرحالة، فقد كانت صورة البدوي، سواء في الجزيرة العربية أو في المجتمع المصري، شديدة الغموض والتناقض، وهي صورة سلبية بشكل عام، لكنها تتراوح أحياناً في كتابات بعض الرحالة بين سلسلة من المتناقضات؛ مثل: اللصوصية والشرف، الهمجية والنبيل، الشجاعة وصدق الوعد من جانب، والخيانة ولؤم الطباع من جانب آخر.

(Edmé-François Jomard) يقف عند هذا التناقض في سلوك العربان في مصر الوسطى، فالجنرال الفرنسي أ. جومار قائلا: "يتحدث الناس كثيراً عن فضائل العرب، وصراحتهم، والعقيدة الدينية التي تدعم كلمتهم، وعن ميلهم إلى إكرام الضيف، لكن أيّاً يكون الأمر في هذه المزايا، فعليك أن تبحث عنها في مكان آخر، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر" (جومار، وصف مصر، ١٩٩٩: ٢٠٣).

لم يكن أ. جومار وحده هو مَنْ تفانى في وصف عربان مصر بتلك الصفات، بل يمكن القول إن معظم ما تركه كُتاب الحملة الفرنسية كان يؤكد تلك الصور الهمجية والبربرية لعربان مصر بجميع طوائفهم.

دخل نابليون مصر ليؤسس إمبراطوريته الاستعمارية، ويحقق توسعاته التي حلم بها، وكان من الطبيعي أن يلقي كغازٍ (أجنبي، مسيحي) مقاومةً من العثمانيين وكلاء الخلافة الإسلامية، والمماليك حكام مصر الفعليين، المهتدين بزوال نفوذهم، وشعب مصر الذي وصف الفرنسيين بـ"الكفرة الفرنسيين". لكنه فوجئ بأنه إلى جوار القوى السياسية التي قوامها الشعب والمماليك، توجد بمصر جماعة بشرية محيرة وعصية على الاستقطاب، لم تسقط في معركة؛ لأن أفرادها مسلحون، ومستعدون للحرب دومًا، فكل مهاراتهم تنحصر في حمل الحِراب، وامتلاك الأسلحة، وكل مفاخرهم تنحصر في غزواتهم الحربية الصغيرة، التي تمكنهم من مناوئة النظام، وكل مناقبهم في الشجاعة، بل قُل الجرأة وعدم الخوف، والاستعداد للموت في سبيل الشرف الذي يصعب تفسيره في جملة محددة، فشرف العربي كما يقول الجنرال اندريوسي Antoine-François (Andréossy) يتمثل في قوّة البدوي وقدرته على القتال "ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما ازدادت الندوب في وجهه دليلًا على ما تلقى من جروحٍ دفاعًا عن الشرف، فهذا الشرف الذي هو دعامة الإمبراطوريات، يقوم بالدور نفسه عند هذه العُصَب البائسة من اللصوص (أندريوسي، وصف مصر، ١٩٩٩: ٧١)، فقد درّبتهم القرون التي قضوها في الكر والفر في مواجهة المماليك، على مهارات يصعب توافرها لغيرهم. ومهارة الكر والفر تتقنها كل الشعوب الرعوية غير المستقرة، فمع إرهاصات الخطر الذي لا قبل لهم بمواجهته، يحملون كل متاعهم فوق جمالهم وخيولهم، ويركضون في الصحراء التي خبروا مساراتها وخبرتهم، وعادةً ما تحتوى على مخابئ لطعامهم وأموالهم، أو على مقربة من أحلافهم القبلية الأخرى، ويستعينون ذلك بدهاء بدوى موروث "لا يمكن مقارنته إلا بجسارتهم" (جومار، ١٩٩٩: ٢١٠)، تلك الجسارة هي التي مكنتهم من البقاء، وأمدتهم بالقدرة على الصراع الدائم، وفرض قانون القوة الذي أتاح لهم الاستيلاء على القرى الواقعة على شاطئ النهر.

فالعربان الذين أقطعوا الكُور البعيدة، زحفوا من أطراف الأرض إلى ضفتي النهر، ثم قاموا تدريجيًا بمصادرة القرى على الجانبين، فيكفى أن يضعوا حِرابهم على تخومها، ثم يخيمون في

قرى صغيرة، وبعدها يستعملون تلك القوة في قطع السدود، ليستولوا على الماء اللازم لرى أراضيهم، التي عادةً لا يستطيعون زراعتها بأنفسهم، فيكثرون الفلاحين لزراعتها، بينما هم يقضون أوقاتهم في البحث عن غزوة، يستطيعون فيها ممارسة مهارات السلب والنهب، أو التلهي بإطلاق قطعانهم على الأراضي المنزرعة، أو يبدؤون في التوسع عن طريق الغزوات الصغيرة؛ ليضيفوا إلى أملاكهم مساحات جديدة أكثر خصوبة، وهم في ذلك يمارسون نوعاً من "السلوك الاستبدادي" على المزارعين، حتى صاروا "سادة مجرى النيل" (جومار، ١٩٩٩: ٢٠١). ولا يجد الفلاح الذي تمت إزاحته بدءاً من العودة؛ ليزرع تلك القرى التي كانت في حوزته، ثم "أصبحت ملكاً للعرب" (جومار، ١٩٩٩: ٢١٤).

والقبيلة العربية - كما يرصد علماء الحملة الفرنسية - لا تملك ولا تستأجر هذه الأراضي، وهي مع ذلك تمثل نفوذاً ونوعاً من السيطرة في دائرة هي أكبر بكثير من هذه الأراضي نفسها، وتكون لكل قبيلة دائرة نفوذ تتلاصق مع غيرها من القبائل، ويحددون دوائر نفوذهم على الأرض في ما بينهم، وكأنها أرضهم والبلد بلدهم، فلا تستطيع أي قبيلة التعدي على مناطق نفوذ الأخرى "إن المرء ليملكه غضب شديد وهو يرى قُطاع الطرق النبلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار التي خربوها، أو يعسكرون من حول القرى التي أفرغوها من سكانها" (جومار، ١٩٩٩: ٢١٤). هكذا تحولت قرى الوادي إلى شبه مستعمرات بدوية، ومناطق نفوذ بين القبائل، يقسمونها فيما بينهم، ويفرضون سلطتهم على نطاقها، ويثيرون الذعر في أهلها، حتى أن المماليك صاروا يتحاشون الاصطدام بهم، فتكاد قراهم تخرج عن نطاق الضرائب المقررة على الإطلاق لأي شخص" (جومار، ١٩٩٩: ١٩٩) فهم لا يعرفون القوانين ولا يحترمونها، والقانون الوحيد الذي يخضعون له هو قانون القصاص واستخدام القوة (أندريوسي، وصف مصر، ١٩٩٩: ٧٧)، وهم في تلك النجوع والمستعمرات يُظهرون نحو الفلاحين تعالياً عنصرياً وعجرفةً "يبدون وكأنهم رضعوها مع لبن أمهاتهم. وحيث إن هؤلاء لا يتصاهرون إلا فيما بينهم، فيزعمون أنهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلًا نقيًا، خُلق خصيصاً لحكم مصر" (جومار، ١٩٩٩: ٢٢٤).

وهم يعتقدون بشرف أنسابهم وتمايزهم العرقي، ويعتزون بماضيهم كسادة وفاتحين، ويمارسون استعلاءً غير مبرر على فلاحى مصر "ليس هناك واحد من هؤلاء البدو، لا يضع نفسه في مرتبة الفلاح. ويشعر هؤلاء البدو نوعاً من العار من القيام بنفس عمل الفلاح، وحيث إن هؤلاء لا

يعرفون حقاً أكثر مشروعية من حق القوة، وأنهم لا يهاجمون، في العادة، إلا الذين لا يمتلكون القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فإن المكاسب التي يحصلون عليها تجعلهم في وضع ينظرون معه لأنفسهم باعتبارهم الملاك الحقيقيين" (جيرار، وصف مصر، ج ٤، ١٩٩٩: ٣٩).

وقد استوقف بعض المؤرخين كيف ينظر البدو إلى أنفسهم كـ"حكام شرعيين لمصر"، وهو ما كان العربان يعتقدون به في الحقيقة، كما ظلوا ينظرون إلى الأتراك والمماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة ذلك فقد اقتسموا هذه المناطق، وأخذت كل قبيلة تحصل في المنطقة التي آلت إليها بعض الضرائب العينية" (إيميه، دى بوا، وصف مصر، ١٩٩٩: ٢٩٩).

وتكررت، في مصادر عديدة، هذه الملاحظة حول اعتقاد العربان في أحقيتهم بأرض مصر وحكمها، ووردت بصيغ استنكارية، أغفلت السياق التاريخي الذي عاش فيه العربان داخل مصر كجزء من نسيجها الاجتماعي السياسي؛ فعلى سبيل المثال، يلاحظ "إجومار" أن البدو ينظرون إلى أرض مصر باعتبارها "عقاراً لهم"، وتحت هذا الادعاء يأتون إليها ليمارسوا آلاف الانتهابات والسرقات. وقد سعت كل حكومات مصر إلى ردعهم، لكنها لم تنجح في ذلك كل النجاح. "وفي خضم هذا الصراع، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقاً من عمال الحكومة الذين يعتصرونه، ويثقلون كاهله، ومن العربان الذين ينتهبونه، ويسفحون دمه" (أندريوسي، وصف مصر، ١٩٩٩: ٧٦)، وهى الملاحظة التي أشار إليها عدد آخر من علماء الحملة ضمن ملاحظاتهم، ومن بينها "إن العربان يعتقدون أنهم أصحاب حق في أرض مصر، وأحق من المماليك وغيرهم، بحكم ما ورثوه من سلطة إبان الفتح، فهم يتعهدون بتقديم نوع من الحماية إلى تلك القرى التي على سكانها أن يقبلوا بأنهم مجرد أتباع لهم، دافعى جزية"^(٣٧).

ويتعجب جومار من احترام الفلاحين لهم، وهو عُرف ورثه العربان منذ الفتح الإسلامى لمصر، قائلاً: "يمكن القول بأن الفلاحين يحترمونهم كسادة لهم، ويُسْتَقْبَلُ أَقْلٌ واحد من هؤلاء العربان شائناً -سواءً أكان مسافراً على ظهر جمَلِه، أو سائراً على قدميه- باحتفالٍ في الريف، فيهرع إليه الناس حاملين الماء إذا كان عطشاناً، والبلح والخبز إن كان جائعاً. أو على الأقل، فإن أى فلاح يستجيب لتقديم هذه الأشياء عند أول طلب" (جومار، ١٩٩٩: ٢٠٩).

أما اللصوصية الممتزجة بالشرف، فقد كانت العنوان الكبير الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية لسلوك هؤلاء العربان، فهم بطبيعتهم قُطاع طرق، بل يمكن التكهن بأن هؤلاء اللصوص المرعبين،

الذين يسكنون شواطئ النيل في الصعيد، ويقطعون طرق القوافل والمراكب، ويثيرون الذعر، هم على الأرجح، كما يرى جومار، ليسوا سوى "سكان القرى العربية" (جومار، ١٩٩٩: ٢٠٧)، والصوصية أو قطع الطرق، وغزو القرى ونهبها، لا يعتبرونها أعمالاً معيبة تستوجب التوارى منها خجلاً، فحتى شيوخ هذه القرى، أي شيوخ العربان، كانوا يقطعون الطريق، ويُرهبون الناس في الأسواق، ولا يستطيع الفلاح أن يجادلهم في السعر. وهم يستولون على دواب الفلاحين المسلمين في أثناء عودتهم من حقولهم، حيث ينقضون عليهم فجأة لينتزعوا منهم ما أرادوا. ومن ثم فقد وجد الفلاحون أن الاحتكام أو اللجوء إليهم لفض مظالمهم مع العربان، لن يُجدي نفعاً، فشيخ القبيلة دائماً ينحاز إلى أفراد قبيلته، والملأك أو الشيوخ العرب "بالغُو الثراء، ولهم نفوذ كبير في البلاد، ويستمدون مكانتهم تلك من الفرع الذي يُحدثونه في النفوس" (جومار، ١٩٩٩: ٢١٢).

أما عن علاقتهم وسياستهم مع جنود الحملة وقوادها، فقد صوّرها الفرنسيون كبرهان على اللؤم المتأصل في طبعهم، وأن الكذب والخداع "عادة متأصلة فيهم" (٤١) (جومار، ١٩٩٩: ٢١٢)، فهم لا يحترمون العهود، بل "ينتهكون المواثيق التي وضعوها، كلما أملى عليهم ذلك ضعفهم، أو مصلحتهم" (أندريوسبي، ١٩٩٩: ٢٧٠). لذلك تم نصح الجنود الفرنسيين بالاحتباس من العربان، بقدر ما يحتمى من "الصوص والسفاحين" (أندريوسبي، ١٩٩٩: ٢٧٤). وقد حاول الفرنسيون الاستعانة ببعضهم كأدلاء، لكنهم غالباً ما كانوا يتواطؤون مع المماليك، ويخدعون الفرنسيين، فقد كانوا "يرشدون الفرق الفرنسية إلى طرق عكسية غير تلك التي كان عليهم أن يسلكوها للحاق بالمماليك" (جومار، ١٩٩٩: ٢٠٦).

كما كانت الفرق الفرنسية هدفاً لأعمال النهب والإغارة التي يقومون بها. وكثير من تلك الفرق كانت شهوداً على أساليبهم المتهورة العنيفة، ومدى قدرتهم على السلب والنهب، بأشكال تبعث على الدهشة "فكم من مرة أخذوا الخيول وهي على مقربة من فرسانها، أو أخذوا الأسلحة من موقع، أو دورية استطلاع، أو من الحرس أنفسهم! بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رؤوس الجنود" (جومار، ١٩٩٩: ٢٠٧). وقد كابد الفرنسيون من غزوات العربان على قوافلهم، وانتهابهم الجنود، وإزعاجهم جيش الحملة الفرنسية بمصر، وهو ما أثار حنق بونابرت كثيراً، حتى أنه فكر في مطاردتهم بالهجانة لإخراجهم من مصر نهائياً. ويثبت ذلك مدى وجود العربان كقوة مناوئة للاحتلال الفرنسي، في سياق المقاومة المصرية. ومثلما دخل نابليون خرج، وبقي

العربان. لكنه لم ينسَ في مذكراته أن يكتب عن "ضرورة كبح جماح عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء، حيث لا تنالهم ضربات العدل" (كلوت بك، ٢٠١١: ٤٢٥).

وفي دراسة أ. جومار لإقليم مصر الوسطى، يرى أن الاستقرار النسبي لبعض القبائل لم يغير طابعها البدوي، فقد ظلوا يحملون بذرة البداوة في تكوينهم الاجتماعي، فعند أية إشارة للحرب، أو النزاع، يتحولون إلى فرسان يتسلحون بالحراش، ويعسكرون في السهول. وقد ظلوا محتفظين بأصولهم. لذلك فهم يختلفون كلياً من حيث الهيئة، وملامح وجوههم، وخصالهم وطباعهم، عن المصريين "فقد استمر الدم العربي يتدفق في عروقهم دون اختلاط، حتى أنك لا تستطيع أن تميز ملامحهم عن ملمح العربان المحاربين، فقد احتفظوا بخطوط الوجه، وخصوصاً العينين الصغيرتين اللامعتين، اللتين تميزان هذا الجنس. وإن كانوا قد احتفظوا فوق كل شيء بروح الجشع، والضرارة، والشجار، والمماحكة" (جومار، ١٩٩٩: ١٩٨).

وعلى الرغم من أنهم جاؤوا الفلاحين زمناً، فإنهم بقوا على طبيعتهم البدوية، ولم تكن جبرتهم مريحة للفلاحين، بل كانت جيرة كارثية، فهم يجورون باستمرار على أراضيهم "بإدعاء حقوق قديمة مزعومة قد تعود، حسب أقوالهم، إلى عشرة أجيال. وأخيراً، فهم عندما لا يجدون ذريعة تُسعفهم في تبرير جورهم هذا، فإنهم يركبون خيولهم، ويستولون بقوة السلاح على الأراضي التي تناسبهم.... وهكذا يعيش الناس في مجاورتهم، في خوف لا ينقطع، وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم، حتى تُهجر تماماً" (جومار، ١٩٩٩: ١٩٢).

أما الطبقة الثانية من العرب، وهم قبائل المحاربين، أو العربان الذين يحترفون التنقل ويرفضون الإقامة، فهم الطبقة الأكثر عدداً، والأكبر قوة. وهؤلاء ليسوا أقل خطراً، ولا تعدداً عن غيرهم من العربان، فهم "يحمون حول مصر كما لو كانوا ذئباً جائعة تحوم حول فريسة دسمة" (إيميه، دى بوا، وصف مصر، ج ٢: ١٩٩٩: ١٦٤). ويكون البدو غير المستقرين جماعات بشرية، لا تملك أرضاً ولا تدفع ضريبة، فقبائلهم تعسكر على أطراف مصر لترعى ماشيتها حيناً، أو لممارسة السلب والنهب، والإغارة على القرى التي تقع في محيط إقامتهم أحياناً أخرى. وبعضهم يظهرون كل عام لقضاء عدة شهور على حدود مصر؛ مثل قبائل "الجيب الغربي"، كالهنادى وأولاد على "كى يقوموا بالانتهاك والسلب، ويبعثوا الرعب والأحزان في هذا الوقت من كل عام" (لوبيز، وصف

مصر، ١٩٩٩: ٤٠). وحتى من يقوم منهم بالخفارة وحراسة الطرق، يفرضون الإتاوات التي يستحوذون عليها بوصفهم مُلاك هذه الطرق وحكامها. ومنهم أعداء أشداء، تخشى بأسهم ولايات مصر الشرقية، حيث "تضطر القوافل التي تعبر الصحراء إلى دفع المكوس للقبائل المالكة للأراضي التي تمر بها؛ خوفاً من أن تهاجم، وتُسلب أمتعتها، ويؤخذ أفرادها عبيداً وسبايا، أو يُسْتَتون في الصحراء" (دى بوا- إيميه، ١٩٩٩، ٢٩٨).

(M. Le Pér) ويقترح "لوبيير" وغيره من علماء الحملة، وجوب توطين هؤلاء البدو وتأهيلهم ليصبحوا مزارعين. وهو اقتراح لم يكن جديداً، فطالما حاول حكام مصر فعل ذلك، لكن لوبيير أقترح أن يتم ذلك بالقوة "أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر، بقدر ما ينبغي أن نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التي تقف منهم موقف العداء"^(٥٣). "وينبغي على حكام مصر حتى بلغوا بهم هذا الحال أن ينتزعوا منهم، عن طريق هجمات خاطفة، ماشيتهم، وبخاصة خيولهم، لأنهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة إذا ما حرموا من وسائل الهرب السريعة، وهو الأمر الذي سيحد من غاراتهم وانتهاباتهم. وينبغي حتى نرغمهم على ذلك أن نستولي على الحبوب التي يحصدونها من بعض المناطق التي تساعد مياه الأمطار على زراعتها، وذلك قبل أن يقوموا بحصادها، فإن وطأة العوز ستضطرهم إلى اللجوء لطلب عون من الحكومة" (لوبيير، ١٩٩٩: ٣٩).

ولكن تلك النصيحة التي يحرض عليها لوبيير، كانت قد مورست كسياسة طويلة، ولم تُجدِ نفعا، فالهجوم على العربان بالتجريدات المملوكية، وسلبهم ماشيتهم وخيولهم، لم يكن يُفضى سوى إلى ثارات عرقية طويلة، أدت إلى حملات انتقامية متبادلة، ونزوح من منطقة إلى أخرى، تطيح بالاستقرار والتوطين المنشود، والاستيلاء على مزروعاتهم سيؤدي إلى حملات مضادة، يستولى فيها العربان على حصاد القرى المجاورة. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها هؤلاء العلماء في تقديم معلومات ديموجرافية وأنثربولوجية عن أعداد العرب وعاداتهم وتقاليدهم، واتسام بعضها بالتعاطف مع الطبيعة الفطرية المتقشفة الحربية التي تعيشها هذه القبائل، فإن الصورة الكلية التي تركها علماء الحملة عن العربان كانت في المجمل قاتمة وأحادية، وغير منصفة في كثير من الأحيان، ولا نستطيع أن نطمئن إليها كلية، فهي تكشف عن تباين ثقافي أدى إلى تعثر في فهم الطبيعة البدوية بشكل عام.

محمد علي وعربان مصر: "نَفْسِي لا تقبل التحكم"

تسلم محمد علي زمام الأمور في مصر، في وقت كان العربان فيه "قد بلغوا من الجبروت، وشدة البأس الناهية، فقد كانوا يفرضون الإتاوات على سكان مصر، ويضربون الفدية، لا يزعهم عن ذلك وازع، بل كان لا يصدّهم أحد عن الزحف على مدينة القاهرة ودخولهم دخول الفاتح لسبى النساء وخطف الأطفال، ونهب الأموال، وكان لا يجرؤ أحد على زيارة الأهرام بغير رضائهم وأمرهم، وكانت القوافل التي تجتاز برزخ السويس، تدفع لهم الفروض الفادحة من المال، تلك الصورة التي رسمها "كلوت بك"، لم تكن جديدة، فقد كان انهيار سيطرة المماليك والأمراء الأتراك في مصر، يتوازى مع محاولات العربان في فرض نفوذهم. ولأنهم ليسوا قوات حربية منظمة ذات أهداف محددة؛ فظلت محاولاتهم فردية، وحشية، هدفها الغزو وممارسة النفوذ والسيطرة، وليست بهدف بناء دولة. ولا شك في أن محمد علي كان يدرك طبيعة مصر، فبدأ بمراكز القوى المناوئة واحدًا تلو الآخر، ثم انفرد بالعربان، واتّبع معهم سياسة تضع في حساباتها طبيعة العربان الخاصة "فاستخدم أساليب مختلفة من القوة والإرهاب، إلى الترغيب والاستمالة، والتأثير فيهم بما يخدم مصالح الدولة" (عبد المنعم، ١٩٩٧: ٧٣)، ومزج محمد علي بين الحملات العسكرية التي تطاردتهم وتقوض تحالفاتهم مع غيره من المماليك؛ مثل "الألفى بك"، فإذا ما شعر البدو أن بيده زمام القوة، لجأ إلى سياسة المهادنة، وعقد الصفقات وإقطاع الأراضي. وأحياناً ما كان يلجأ إلى تأليب تلك القبائل بعضها على بعض، وتوريثها في صراع قبلي يضعفها. والباشا يُعين هذا على ذاك، ثم يقتص لهؤلاء من هؤلاء. على سبيل المثال؛ استغل العداء والخلاف بين قبيلتي الهنادى وأولاد علي -وهم أولاد عمومة- في إقليم البحيرة، لتأليب القبيلتين، وتحريض كل منهما على الأخرى، وقدم المساعدة العسكرية للفريقين لإضعافهما، والتخلص من أكبر عدد ممكن من شيوخ القبيلتين، ثم فصل بينهما بإجلاء الهنادى للشرقية، وفرّق كلا منهما في جهة من الجهات، لينهى بذلك قوتها المشتركة (الجبرتي، ج٤، ١٩٧٧: ٧٨-٨٢) ويفضّل الرافعي في وصف ما انتهجه محمد علي مع العربان، قائلاً إنه "رأى من الحكمة بادئ الأمر في أن يهادن زعماء القبائل، ويسلك حيالهم مسلك المحاسنة، فعقد الاتفاقات معهم، ولكن القبائل نقضت هذه الاتفاقات، فأدرك محمد علي أنه لا مناص من أخذهم بالقوة، فجرد عليهم كتائب الفرسان، فأخذت تناوشهم، وتسد عليهم السبل، إلى أن أذعنوا، وثابوا إلى الطاعة، وطلبوا الصلح. فرضى أن

يصالهم على أن يقيم زعماءهم بالقاهرة، ليكونوا رهائن عنده، يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم. وأجرى عليهم الرواتب والأرزاق، فكان لهذه الوسيلة تأثير كبير في إخلاد القبائل إلى الهدوء والسكينة. ولجأت الحكومة إلى وسيلة حكيمة تصرف بها البدو المنتشرين في أطراف البلاد عن عيشة البداوة، وتدخلهم في حظيرة العمران، فأقطعتهم أراضٍ شاسعة، أعفتها من الضرائب، ينتفعون بها ويستغلونها" (الرافعي، ١٩٨٩: ٥٥١).

لم تكن فكرة الرهائن جديدة كلياً، فكثير من القبائل البدوية تتبع هذه السياسة حين تبرم عهداً وتريد إجبار غيرها على الالتزام به، ولكنها هذه المرة مع الباشا محمد على آتت أكلها، وأدت إلى نتائج حاسمة لصالحهم في هذا الصراع، خاصة أنه عرض على العربان الالتحاق بالجيش النظامي، الذي يقوم بتأسيسه. وذلك ما طمح به العربان طويلاً، على أمل أن يعودوا كما كانوا جنداً لهم رواتب وحظوة. كما أن الحرب ربما هي المهارة الوحيدة التي يجدون فيها مجدهم، وسعت كل الحكومات إلى دفعهم إلى تركها، وامتهان الزراعة بديلاً عنها.

وبعد ذلك اجتذب محمد على رؤساء العشائر من العربان، ليصبحوا جزءاً شبه مستقل من جيشه كفرق أو تجريدات، تقوم بمهمات الكر والفر، وهى المهمات التي يعجز أى جيش نظامى عنها، خاصة حين تكون المواجهات في أماكن ذات طبيعة جغرافية، لا يعرف مسالكها ودروبها ومتاهاتها سوى العربان، فحبّب محمد على إليهم الانخراط في سلك الجيش النظامى الذي أسسه، وعرض أن تدفع لهم الحكومة أجورهم "على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، فلبّوا الدعوة، واستفاد الجيش المصري منهم فوائد جمة، واشتركوا في حروب السودان، والحجاز، وسوريا، والأناضول. واتخذ منهم إبراهيم باشا حرسه الخاص" (الرافعي، ١٩٨٩: ١٥٢). على الرغم من جهود محمد على وأبنائه في توطين البدو، فقد استمر البدو - بحسب المصادر التاريخية - على تلك الحال التي ألفوها من التعدى على أملاك الفلاحين، فاستبدلوا بأرضهم وإقطاعاتهم أرضاً أكثر خصوبة قسراً، وأرغموا بعض الفلاحين على ذلك، واستمروا في مناوشة القرى، وإطلاق قطعانهم عليهم (انظر، الرافعي، ١٩٨٩: ٨٧)، وتشغيل الفلاحين في أراضيهم، وتكوين طبقة من الأعيان والبهكوات والبشوات الذين استغلوا الفلاح المصري لعقود.

إن الاستقرار التاريخى لفترات طويلة من تاريخ مصر يكشف النزاع والصراع بين مكونين من مكونات المجتمع المصري، هما البدو (القبائل العربية)، والفلاح المصري، وما زال هذا النزاع

يندلع في القرى الصغيرة على أطراف مصر. ورغم التغيرات الاجتماعية والسياسية التي قلصت نفوذ البدو والإقطاعيين، فلا شك أن عقوداً طويلة قد كرّست صوراً سلبية لتلك القبائل، فصورة البدوى التي قدمتها المصادر التاريخية كانت قائمة، ورسمت مزيجاً من الهمجية والبدائية والتوحش، وجعلت من الفلاح المصري ضحية لهذا المحارب المتوحش الذي يفرض سيطرته ونفوذه على أرياف مصر، فضلاً عن حواضرها.

والسؤال الذي يطرح نفسه على الباحث بعد هذا الاستقراء التاريخي، هل رسم الأدب الشعبي المصري صورة للعربان؟ فهذا النزاع والتجاوز التاريخي الطويل بينهم، ولا شك، قد انعكس في الإنتاج الشفهي الذي يعبر عن الوجدان الجمعي للشعب المصري، فإذا كانت المصادر التاريخية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا تخلو من ذكر مفاسد شيوخ العربان وتمردهم كقوة سياسية، وما تسبب فيه هذا التمرد السياسي من استبداد بأهل البلاد من الفلاحين، وما قاساه الفلاح من السلب والنهب والغزو والإغارة وقطع الطرق وتهديد قوافل الحجاج، والسطو على محاصيل الفلاح والإغارة على القرى الآمنة، وقطع الجسور، وأسرفت بعض المصادر في تصوير الفلاح المستسلم لهؤلاء العربان الذين ينشرون الذعر، وتزداد حركات تمردهم حتى تصبح سيطرة وسيادة تامة على بعض الأقاليم، وإقامة المراكز الخارجية عن سلطة الدولة، وتكوين إمارة محكومة ذاتياً بشيوخ العربان الذين اضطهدوا الفلاح المصري- فكيف عبّر الوجدان الشعبي عن هذا الصراع؟ لكن الباحث في الصورة التي رسمها التراث الشعبي للعربان سيفاجأ بأن صورة العربان (شيخ/ شيوخ العرب) لم تكن سلبية، بل يمكن الجزم من استقراء وتحليل الكثير من النصوص الشعبية، من أغاني وعديد وأمثال شعبية، بأن المصريين رسموا صوراً لشيوخ العربان، تحمل كثيراً من الاحترام والتقدير. ورغم الصراع والنزاع بين الثقافتين الزراعية والرعوية، والتاريخ الملىء بالمظالم، فإن أشكال التعبير الشعبي حملت ميراثاً من الإعجاب، يصل إلى التقديس لصورة شيخ العرب في الوجدان الشعبي المصري. ويعود ذلك، من وجهة نظري، إلى ما تمتع به العربان في مصر من حفاوة، مصدرها التقديس لكل ما يتصل بأهل البيت، واقتناعاً بأن النبي كان عربياً، وأن تلك القبائل تمتد عروقها لشجرة نسبه، بالإضافة إلى أن الكثير من الأولياء الصالحين والأبطال الأسطوريين في المخيلة الشعبي كانوا ينتمون في أصولهم إلى تلك القبائل، فالصورة التي ارتسمت للبدو في مصر ولشيخ العرب في الذاكرة الشعبية المصرية إشكالية تتراوح بين الاحترام والتقدير

الديني للفتاح العربي صاحب الرسالة واللغة والديانة، وبين الازدراء لهذا البدوي، الهمجي المستلب، مستغل أرض مصر التي شكلت الضرع العامر بالخيرات.

تظهر تلك الصور المتناقضة؛ على سبيل المثال، في بعض الأمثال الشعبية مشيرةً إلى صلافة وعنجهية وعدم أمانة البدوي؛ أو ذو الأصول القبلية والذين يطلق عليهم إجمالاً (عرب)، كقولهم: "جور الترك ولا عدل العرب" (بوكهارت، ٢٠٠٠: ٧٧)، "ضيف البدوي يسرق ثيابك" (بوكهارت، ٢٠٠٠: ١٥٧) وقولهم أيضاً: "كله عند العرب صابون" (شعلان، ج ١، ٢٠٠٣: ٤٤٣)، والمعنى أن العرب يشتهرون بأنهم أجلاف لم يأخذوا من المدنية بطرف، لذلك فهم لا يميزون ولا يعرفون الحسن من الرديء.

والعربان لا ذمة لهم ولا رحمة "آه من ابن العرب، لما يقدر ما يعفّيش" (شعلان، ج ٢، ٢٠٠٣: ٤٧٣)

لكن التراث الشعبي تضمن أيضاً، بشكل كبير، صوراً عن إعجاب المصري بشخصية البدوي وشيوخ العربان؛ كقولهم "كل قبيلة ولها شيخ" (شعلان، ج ٢، ٢٠٠٣: ٤٥٤)، ومنها قولهم: "ولا كل من ركب الفرس خيال ولا كل من لف العمامة زانها" (شعلان، ج ٢، ٢٠٠٣: ص ٤٥٩) وقولهم: "كبير الراس فارس، كبير الراس أمير، ولا يحلّ المجالس إلا أبو منخور كبير" (شعلان، ج ٢، ٢٠٠٣: ٤٦٠).

ارتبط التقديس برموز السيرة الهلالية وأبطالها؛ فعلى سبيل المثال، كان الشعب المصري يرى المجد والمنعة وكرم الأصل متجسداً في بطل السيرة الشعبية الفارس العربي أبي زيد الهلالي سلامة، وكانوا يضربون به المثل في العزة، فيقولون لمن يترفع على الناس على سبيل الاستنكار: "أبو زيد خالك؟"، ويقولون في غلبة الأمر الواقع: "دار حالك ولو كان أبو زيد خالك"، ويؤكدون أن "المديون ذليل ولو كان أبو زيد خاله".

ف"أبو زيد" يمثل في الوجدان الشعبي المصري نموذجاً لشيخ القبيلة، الفارس والمُنقذ، هو "أبو العرايب" كما يوصّف في سيرته "في العرب يسمى أبو زيد المسابير، وفي الحروب يا شيخ تلقاه صاحب جراير" (عمران، ٢٠٠٦: ٢٩٣-٣٠٨).

وإلى جانب "أبو زيد الهلالي" كانت شخصية "شيخ العرب السيد البدوي" تحتل مكانة روحية كبيرة في الوجدان المصري، وما زال البسطاء من فلاحى مصر يحجّون لمقامه طلباً للبركة، والسيد البدوي هو أيضاً في قصص هؤلاء المذّاحين "شيخ العرب"؛ كقولهم في وصفه:

"مدد يا شيخ العرب يا عم يا سيد، يللى جمعت في رحابك العبد والسيد،

يا قطب يللى الهواية خلّتك سيد، ادعى لنا ربك يزيل عنا الألم والكرب

يللى دُعَاك مستجاب يا عم يا سيد" (الصفناوي، ٢٠٠١: ٢٩٠).

ويمكن ملاحظة ما يحظى به شيوخ العربان من تقدير في الوجدان الشعبي المصري من خلال استقراء بعض نصوص الأدب الشعبى؛ كالأغاني والعديد وغيرهما من الفنون الشفهية التي تعكس صورة إيجابية للعربان في الوجدان الشعبى.

الكثير من العدودات المصرية (شعر المراثي) تستلهم صورة "شيخ العرب" للتعبير عن قدر ومكانة الميث، أو عن سلطته ونفوذه الذي ارتجّ وتزعزع عرش القبيلة بموته، فبيت "شيخ العرب" هو موضع عزوة القبيلة، وموت شيخ العرب يعنى خراباً وتشردماً وضياًعاً وتبعثراً لتلك العزوة، كما تقول العدودة:

"على بيتنا اتهد من ساسه.. نبحت كلابه واتبعترت ناسه

على بيتنا اتهد من غربه، نبحت كلابه اتبعترت عربه" (حفني، ١٩٨٢: ٩١)

ومقارنة شيخ العرب في نفوذه الاجتماعى مع الباشوات وذوي السلطة والمنزلة وحسن السيرة هي مضرب للمثل؛ ففى رثاء شيخ العرب تقول العدودة:

"أقول عليك القول وأتمثل.. شيخ العرب قد الباشات وأكثر

أقول عليه القول كله زين.. شيخ العرب قد الباشات وأخير" (حفني، ١٩٨٢: ١٠٠)

وفي مريّة أخرى:

"يا شيخ العرب شيع لك المأمور.. علشان قضية تفكها وتقوم" (ماسيرو، ٢٠٠٠: ١٢٦)

وترتبط مكانة شيوخ العرب، والعربان بشكل عام في الريف المصري، بما تمثله السيرة الهلالية وشخصيات أبطالها في الوجدان الشعبى، فكثيراً ما يأتى العديد مصحوباً بإشارات إلى أبطال السيرة وما لهم من مكانة؛ كأبي زيد الهلالي والزناقي خليفة، وغيرهما من الأبطال الذين تركوا في الوجدان

الشعبي أثرًا عميقًا؛ ففي عديد أعيان العربان، تقف العدو المصرية على صورة بيت شيخ العربان، مثل بواباته الكبيرة التي تعكس وجاهة ومكانة صاحبها، من أرياف مصر حتى حدود تونس التي هي منتهى تغريبة العرب، فتقول العدو وهي تسائل البوابة: من سيكون وكيلك وصاحبك بعد موت صاحب البيت؟

"بوابته يا أم السبع لوحات من تونس الخضرا وكيلك مات

بوابته يا أم السبع مسامير من تونس الخضرا وكيلك مين؟" (حفني، ١٩٨٢: ١٠٠)

وفي عديد أو رثاء شيوخ العربان يبرز حسن السيرة المرتبط بأمجاد "الزناقية" نسبةً إلى بطل السيرة "الزناقي خليفة"، والهلالية، وهي القبيلة التي ينتسب إليها أبو زيد الهلالي وغيره من الفرسان، فموت "شيخ العرب" يستدعي كل قصص البطولة التي تُنسب لهؤلاء الأبطال في المخيلة الشعبي. تقول العدو:

"أقول عليه القول بالمية.. قول الزناقية والهلالية" (حفني، ١٩٨٢: ١٠٠)

وبينما يستحضر موت شيخ العرب قصص البطولة وأمجاد التغريبة ومروياتها المتصلة بالشجاعة والكرم والإقدام، فإن (عديد) المرأة الشابة يضع بنت (بكرة) العرب نموذجًا للكمال والعزوة التي يُنسب إليها الجمال العربي الأصيل، فشعرها الذي يشبه سبيب الخيل، والشرف الذي يكلل جبينها ناصع البياض وهم يُدلون جسدها في القبر:

"بكرة عرب ونازلة تشرب والشعر خيل والجبين أبيض

بكرة عرب ونازلة م الريف والشعر خيلي والجبين نضيف" (حفني، ١٩٨٢: ١٢٥)

فصورة المرأة الشريفة التي يتركها ركب العربان لتواجه مصيرها بعد الدفن هي من الصور المتكررة في العديد، ويستخدم تعبير "بكرة عرب" للدلالة على صغر سنّها وشرف نسبها، ولكن الموت يُجبر هذا الركب من الفرسان على تركها خلفهم، ويُرغم أخاها على أن يُدليها في التراب:

"بكرة عرب والركب خلاها.. هانت على أخوها ودلاها

بكرة عرب والركب همّلها.. هانت على أخوها ونزلها" (حفني، ١٩٨٢: ١٢٥)

وعديد أو مراثي المرأة الكبيرة ذات العزوة والأصل الشريف يكون بوصفها "شيخة العرب"، فعديد المرأة كبيرة السن يتم بذكر مكارم الشيخة العربية التي يزينها شرف الأصل وصيانة العرض، وكمال الأخلاق، والسلامة من العار:

"شيخة عرب تتحط جوه رواق.. كاملة المعاني وساملة من العار

شيخة عرب تتحط جوه الجيب.. كاملة المعاني وساملة من العيب" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٢)

بعض تلك العودات تكشف المكانة التي اكتسبها العربان في ريف مصر، ومن مظاهر ذلك في هذا العصر حرص تلك القبائل على اقتناء العبيد الذين كانوا يدينون بالولاء للقبيلة، فلا تخرج بنت العرب إلا وهي محاطة بعبيد قبيلتها الذين يوفر لهم لها مكانة اجتماعية تميزها عن العامة، وفي عديد شيخة العرب تأتي صورة العبد لتعبّر عن علو المكانة، ورفع الأصل. تقول العوددة:

"شيخة عرب والعبد لابوها.. صعبت علينا نهار ودوها

شيخة عرب والعبد صنعتها.. صعبت علينا نهار دفنتها" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٢)

وتبدو مفردة الشرف إحدى الدلالات اللغوية التي تحيط بهيبة شيخة العرب، فالشرف، سواء كان المقصود به شرف الأصل أو صيانة العرض، هو إحدى الصفات التي أعلاها القانون القبلي، خاصة فيما يتصل بالنساء. ومن ذلك قولهم:

"اسم الله عليك يا شيخة العربان.. يللى تناك شرف الشيلان

اسم الله عليك يا شيخة العربان.. يللى تناك شرف الرقبة" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٣)

و (التنا) -بفتح التاء- المضاف إلى ضمير المخاطبة المؤنثة، في قولهم (تناك)، المراد به السلوك والخلق، وهى الكلمات التي بطل استعمالها في البيئة نفسها، والشيلان هى التي تشد على العمائم، أى أن سلوكها يشرف عمائم رجالها.

"يا عامرة بيتك رحلت ليش.. قولى لنا سبب الرحيل عlish

لا ترحلى يا شيخة العربان.. يللى تناك بيض الشيشان" (ماسيرو ٢٠٠٠: ١٣٧)

والمكانة الاجتماعية التي اكتسبها العربان في الريف المصري تتبدى في الكثير من الظواهر التي كان العربان يحرصون عليها؛ مثل إكرام الضيف، ما جعل القرويين من فلاحى مصر يُظهرون التقدير لمكانة وهيبة بيوت العربان المفتوحة والمستعدة لاستقبال الزوار:

"شيخة عرب يا فارشة اللباد.. كلمى وحبائك على الباب

شيخة عرب يا فارشة حمولك.. ما تكلمى ده حبائك جوك" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٢)

ولم يكن الشرف والمكانة الاجتماعية فقط هو ما أضاءته الكثير من العدودات، فالثراء والغنى أيضاً كان أحد تلك الملامح، فشيخة العرب التي تفتش لبادها وتجلس في فاتحة بابها للزوار هي أيضاً تلك المرأة التي تتزين بالمجوهرات إظهاراً للثراء وعلو المكانة:

"اسم الله على شيخة العرب ما تموت.. حلقها ذهب وعقدها ياقوت

اسم الله على شيخة عرب تاني.. حلقها ذهب وحجلها ريالي" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٣)

لكن تلك الحجول التي تميز العربان، وتلك الزينة أصابها الصدا من قسوة المرض.

"شيخة عرب على الفرش تتغدى.. خلخالها زاد العيا صدى" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٤)

وترتبط صورة العربان بأصولهم الحجازية الشريفة، التي تجعل لهم مكانة روحية ونفوذاً اجتماعياً في الريف المصري، فبكاء شيخة العرب يستحضر البلاد المقدسة:

"ست الحجازي الدنقري الأكحل.. شيخة عرب شدولها ترحل

ست الحجازي الدنقري المجدول.. شيخة عرب عاطينها الموصوف" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٣)

ولموت شيخة العرب ترتج الأبواب، ويتزلزل الوادي، ويخرج العربان لسماع الخبر حين تم تشييعه، فينتفضون من كل حدب وصوب. تقول إحدى تلك العدودات إن شيخة العرب التي خلعوا عند الموت لآلئها وثيابها المصبوغة (مقندلها)، فكان ذلك حدثاً عظيماً، وارتج المنزل من هول المصيبة:

"شيخة عرب قلعوا لواليتها.. قام الصرير وارتج واديتها

شيخة العرب قلعوا مقندلها.. قام الصرير وارتج منزلها" (حفني، ١٩٨٢: ١٤٣)

لم يكن العديد فقط هو ما يكشف صورة شيخ/ شيخة العرب في الثقافة الشعبية المصرية، بل عكست أغاني الأفراح أيضاً صورة مماثلة للعروس (بنت شيخ العرب)، فهي صاحبة سلطة وسلطان، وسليمة عز ومجد، ليس فقط في الأغاني الشعبية المصرية، بل أحياناً في التراث الغزافي القريب من مصر، وكان إقليم غزة يخضع أيضاً للتقسيم المصري آنذاك؛ فمما سمعته يتردد في بعض مناطق سيناء القريبة من غزة غناء بعض الفتيات:

"يا بنت شيخ العرب يا أم العباية السودا
وأبوك شيخ العرب حاكم على العوجا
يا بنت شيخ العرب يا أم العباية الزرقا
وأبوك شيخ العرب حاكم على البلقا"^١

فبنت شيخ العرب هي السيدة ذات الحسب والنسب ووريثة المجد من مصر إلى حلب، تلك
المساحة التي امتدت فيها القبائل وتناثرت بطونها. ومن غنائهم في ذلك:
"ها المصمودة بنت شيخ العرب.. ها المصمودة بنت شيخ العرب
مدت السفرة والمعالق ذهب.. مدت الفرة والمعالق ذهب
يا صيت أهلها من مصر لحلب.. يا صيت أهلها من مصر لحلب"^٢

وبنت العرب في تراث أغاني الأفراح المصرية هي سليمة المجد، فهي بنت الأكابر والأبطال العظام،
التي تنتسب إلى الهلالي صاحب السيرة؛ تقول الأغنية:
"بنت المقادم م الصغر خطبوك.. البدر عمك والهلالي أبوك" (الأسيوطي، ٢٠١٢: ٥٩)

والوقوع في هوى بنات العرب يشكل مخاطرة، فهن عصيات على الاستمالة، ولا يمكن الارتباط
بهن، ويبدو ذلك المعنى في الكثير من المواويل الشعبية، ومنه:
"خطروا بنات العرب والقلب فيه حنة
يمشوا بصنعة يا بوى خلوا جسمنا حنّى
اتحرك لسانى وقلت:

مصر عالية ليه؟ قالت: وانت فايت أهلك وناسك وجاى ورايا ليه
قلت لها: أنا يا جميل في هواك طيّبت
قالت: تحب ملم يحبك
يك يا فتى اتجنيت" (الأسيوطي، ٢٠١٢: ٥٩)

١. تلك الأغنية جمعتها الباحثة من أغاني الأفراح في منطقة الشرقية.
٢. هذه الأغاني تم تسجيلها في أحد أعراس قبيلة "مزينة" بمنطقة القنطرة شرق الشرقية، مصر.

وفي موال آخر ينصح المغمى صديقه بأن يكون أهلاً لذلك بالغنى والحسب:

"لو كان ودك بنات البدو يهويناك

جر الماسم وشيل البن في كمك

أربع غزالات يرعن في دريس ربه

ومحسبات في النبي من صيد أبو حبه" (ماسيرو ٢٠٠٠: ٢٠٦)

وبعض الأغاني تعكس صورة بنات العرب باعتبارهن بنات الحسب والنسب اللاق يتوفر لهن رغد العيش:

"واللی خطبتوها و دی بنت مین یا عرب

واللى خطبتها ودى بنت شيخ البلد

والريس أبوها ودي بنت مين يا عرب

ما يحلف إلا على الناقة ويديحها

ويطلع البنت من بيته مصيغها

ودی بنت مین یا عرب" (فضل، ۲۰۰۲: ۱۵۰)

فهي ابنة الحسب والنسب وابنة الأكابر والرجال ذوي الهمة (المقدام)، ويعادل مهرها ألفين من الجنيهات الذهبية:

"بنت المقادم والرجال الزينة

أَبُوكِ هُنَا وَلَا نَرُوحُ لَهُ الْخِيْمَةَ

بنت الأكابر روحوا شاوروا أبوها

وَأَلْفِينَ شَرِيفَةً فِي الطَّبَقِ حَطُوهَا

بنت الأكابر والرجال الزينة

أَبُوكِ هُنَا وَلَا نَرُوحُ لَهُ الْخِيْمَةَ" (فضل، ٢٠٠٢: ١٥٠)

وبنات العرب عالياً القدر، ومهرهن غال، لا يقدر على الفوز بهن إلا ذوو الحظوة:

"يا عرمة الرز ومتمنة غالي

دا احنا بنات العرب مهرنا غالى
 ما نلبس إلا الحرير من فوق شعالي
 ما نكحل العين كحل شب حيران
 يا عرمة الرز ومتمنة غالى

دا احنا بنات الأصول ومهرنا غالى" (غانم، ٢٠٠٥: ٤٧)

والكثير من الأغنيات التي تصف العريس تقف على كونه ابن العرب أيضًا، أى يحظى بالاحترام والتبجيل لما له من أصل وعزوة:

"طلقنا البخور والعطر من قدام
 سلام عليك يا مجالس العربان
 طلقنا البخور والعطر من قدامه
 سلام عليك يا مجلس أعمامه" (فضل، ٢٠٠٢: ١٦٨)

فالعريس له حضور وأبهة وعظمة كأنه ابن عرب أو ينتمي للبهوات والبكوات الأتراك:

"عتيق مثل البحر له شيمه وله برمات
 خراج ولد العرب والترك والبيهات" (ماسبيرو، ٢٠٠٠: ٢٠٧)

وابن العرب له سطوة وعزوة، ويخطف حبيبته من بين أهلها في وسط النهار وفي ذلك إشارة للقوة والعزوة:

"يا بت يا أم القميص الأحمر بسيالة
 خدك وليد العرب في عز قيالة
 يا بت يا أم القميص أحمر بسياليتين
 خدك وليد العرب من بين حبابي العين" (الأسيوطي، ٢٠١٢: ١٤٦)

ولم تخل أهازيج الأم وهي تهدد طفلها من بعض الصور التي تكشف المكانة الاجتماعية التي حظي بها العربان في الريف المصري؛ فتقول الأم لوليدها مُهددةً:

"يا ولد يا ولد عملوك عمدة البلد

يا ولد يا ولد حسك طالع في البلد

والبحيرة عبيدك

والغز خافت والعرب" (الأسيوطي، ٢٠٠٢: ٦٦)

فالأم في هذه الأزوجة ترى في طفلها "سمات النجابة والقيادة التي تؤهله لأن يكون عمدة البلد... لقد اتسع نطاق سطوته حتى صار عرب البحيرة، وهم المسموع عنهم الخروج على كل

الحكام- عبيدًا له" (الأسيوطي، ٢٠٠٢: ٦٧)

وفي أزوجة أخرى لترضية الأم، يقول الابن الذي يتودد لأمه:

"أمى الحبيبة ما أقدر أحاربها

لأجيلها العربان وأطايها

أمى الحبيبة ما أقدر أعاديها

لأجيب لها العربان وأراضيها" (الأسيوطي، ٢٠٠٦: ٤٤)

والمعنى أنه: إذا غضبت منى أمى الحبيبة فسأفعل المستحيل من أجل أن أطيّب خاطرها، وإن اضطّرت إلى توسطت شيوخ العربان حتى ترضى عني.

تعكس تلك النصوص الشعبية المكانة التي حازها العربان في الريف المصري، والتقدير الذي كان العامة ينظرون به إليهم بوصفهم أعيانًا وموثرين، ينتمون لأبطالهم الأسطوريين، كأبي زيد والسيد البدوي وغيرهما من الشخصيات التي صاغت الوجدان الشعبي المصري، وهو ما يناقض تلك الصورة التي رسمها المؤرخون وبعض المستشرقين بتصوير الصراع الاجتماعي بين العربان والفلاح المصري، وإن شئنا الدقة فإنها تعكس زاوية جديدة لتلك الصورة.

نتائج البحث:

عرف التاريخ الاجتماعي والسياسي المصري أشكالًا من النزاعات العرقية بين القبائل العربية التي دخلت وتوطنت مصر والشكّال الأفريقي منذ الفتح الإسلامي لمصر، وانعكس ذلك في صور قائمة للنزاع بين أهل البلاد من المصريين (القبط) والعربان، وخاصة في الفترات التاريخية التي سادها الفوضى السياسية، ورغم ميراث المشاحنات والنزاعات بين البدو والفلاح المصري ويمكن أن نُجمل الصورة النمطية عن طبيعة البدوي بشكل عام. وقدمها المستشرقون والدارسون، في أنه صعب

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.(١٩٥٨) مقدمة ابن خلدون، تحقيق أ.م. كارمير، طبعة باريس.
- الأسيوطي، درويش. (٢٠١٢) أفراح الصعيد الشعبية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
- ---- (٢٠٠٢) من أهازيج المهدي، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ---- (٢٠٠٦) أشكال العديد في صعيد مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

- أمين، أحمد. (١٩٥٣) قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية، القاهرة ١٩٥٣، منشور إلكترونيًا بواسطة مؤسسة هنداوي.
- أندريوسي. (١٩٩٩) رحلة إلى وادي النطرون، وصف مصر، ج (٢)، ترجمة زهير الشايب، القاهرة.
- البري، عبد الله خورشيد. (١٩٩٢) القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- بوكهارت، جون لويس. (٢٠٠٠) العادات والتقاليد المصرية: من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، ترجمة إبراهيم أحمد شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الجبرتي، عبد الرحمن. (١٩٩٧) عجائب الآثار في تراجم الأخبار، ج (٤) تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- جومار. (١٩٩٩) العرب والعربان في مصر الوسطى، وصف مصر، ج (٢)، ترجمة زهير الشايب، القاهرة.
- جيرار، ب. س. (١٩٩٩) الحياة الاقتصادية في مصر، ج (٤)، ترجمة زهير الشايب، القاهرة.
- حفني، عبد الحليم. (١٩٨٢) المراثي الشعبية (العديد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- دى بوا- إيميه. (١٩٩٩) القبائل العربية في صحراوات مصر، وصف مصر، ج (٢)، ترجمة زهير الشايب، القاهرة.
- الرافعي، عبد الرحمن. (١٩٨٩) عصر محمد علي، دار المعارف، القاهرة.
- شعلان، إبراهيم أحمد. (٢٠٠٣) موسوعة الأمثال الشعبية المصرية، دار الآفاق العربية، القاهرة.
- الصفناوي، فتحي عبد الهادي. (٢٠٠١) مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية الغنائية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- عبد المنعم، إيمان محمد. (١٩٩٧) العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- عمران، محمد. (٢٠٠٦) موسيقى الغجر المصريين، المركز المصري للثقافة والفنون، القاهرة.

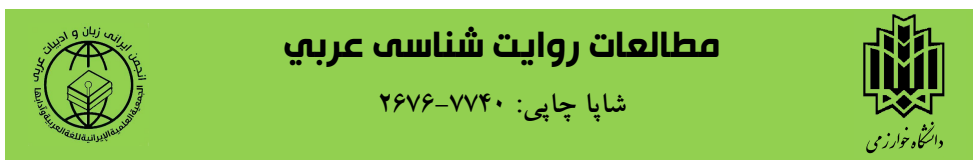
- غانم، محمد حسن. (٢٠٠٥) أغاني الأفراح في القاهرة الكبرى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
- فضل، محمود أحمد. (٢٠٠٢) الأغنية الفلكلورية للمرأة المصرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
- كلوت بك، أنطوني برقلي. (٢٠١١) ملحّة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب القومية، القاهرة.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف المصري. (١٩٦٦) الولاة والقضاة، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة.
- لوبير، جراتيان. (١٩٩٩) جولة في إقليم المريوطية؛ وصف مصر، ج (٢)، ترجمة زهير الشايب، القاهرة.
- ماسيرو، جاستون. (٢٠٠٠) الأغاني الشعبية في صعيد مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- المقرزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. (١٩٩٧) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي القاهرة.
- منير، عمرو عبد العزيز منير. (٢٠٠٩) قبائل العرب في الشرقية بمصر بين التاريخ والموروث الشعبي، مجلة الثقافة الشعبية البحرين، العدد السادس صيف ٢٠٠٩.

References

- al- Maqrīzī ,Aḥmad ibn ‘Alī Taqī al-Dīn. *Al-mawā‘iz wa-al-i‘tibār fī dhikr al-ḥiṭaṭ wa-al-āṭār* ,*Mawā‘iz wa’l-I‘tibār fī dhikr el-khitat wa’l-āthār* (History of al- Maqrizi)• Published by: Maktabat Madbūlī, Cairo,1997.(Arabic)
- Al-Asyūṭī , Darwish. *ashkal al- ‘adād fī ṣa‘īd Miṣr* (Oral Lamentation in upper Egypt) , published by : l-Hay’ah al- ‘Āmmah li-Quṣūr al-Thaqāfah, Cairo, 2006. (Arabic)
- Al-Asyūṭī, Darwish. *afrāḥ al-Ṣa‘īd al-sha‘bīyah* (songs of weddings in upper Egypt), Published by al-Hay’ah al-Miṣriyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo ,2012. (Arabic)
- Al-Ġabartī , ‘Abd ar-Raḥmān. *‘Ajā‘ib al-āthār fī al-tarājīm wa-al-akhbār* ,(‘Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt) ,The National Library of Egypt, Cairo,1997. (Arabic)
- Amin ,Ahmed. *Qāmūs al- ‘adāt wa-al-taqālīd wa-al-ta‘ābīr al-Miṣriyah*,(lexicon of Egyptian Tradition), Published by : Dār al-Shurūq,Cairo , 2010. (Arabic)
- Andréossy ,Antoine-François. *Waṣf Miṣr*, (Description of Egypt , by France. Commission of sciences and arts of Egypt 1809-1828),Translated by Zuhayr Shāyib, Volume 2 , Published by: Maktabat Madbūlī,Cairo• 1999.
- Barri ,Abd Allah Khurshīd. *al-Qabā‘il al- ‘Arabīyah fī Miṣr* ,(Arab tribes in Egypt) Published by : al-Hay’ah al-Miṣriyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo,1992. (Arabic)
- Burckhardt, John Lewis. *al- ‘adāt wa-al-taqālīd al-Miṣriyah* (customs and tradition of the modern Egyptians), Published by : al-Hay’ah al-Miṣriyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo,2000.
- Clot-Bey. *Lamḥah ‘āmmah ilā Miṣr* (A general Glimpse of Egypt), Translated by: Muḥammad Mas‘ūd, Published by : Dār al-Kutub wa-al-Wathā‘iq al-Qawmīyah, Cairo ,2011. (Arabic)
- Dubois, Aimé. *Waṣf Miṣr*, (Description of Egypt , by France. Commission of sciences and arts of Egypt 1809- 1828),Translated by Zuhayr Shāyib, Volume 2 , Published by: Maktabat Madbūlī,Cairo• 1999. (Arabic)
- Faḍl, Maḥmūd Aḥmad. *al-ughniyah al-fulklūrīyah lil al-Mar’ah al-mar’ah* (The folk song of Egyptian women)published by al-Hay’ah al- ‘Āmmah li-Quṣūr al-Thaqāfah, Cairo,2002. (Arabic)
- Faṭḥī ‘Abd al-Hādī, Ṣinfāwī. *Madkhal ilā dirāsāt al-ma‘thūrāt al-sha‘bīyah al-ghinā‘īyah : al-fulklūr al-ghinā‘ī* (Folk songs; Arab countries; social aspects; history and criticism),Published by: al-Majlis al-A‘lá lil-Thaqāfah, Cairo, 2001. (Arabic)

- Ghānim, Mohammed Hassen ,*Aghānī al-afrāh fi -al-Qāhirah al-Kutubkhānah*(Wedding songs in Greater Cairo),published by: al-Hay'ah al-‘Āmmah li-Quṣūr al-Thaqāfah, Cairo,2005. (Arabic).
- Girard,B.S.. *Waṣf Miṣr*, (Description of Egypt , by France. Commission of sciences and arts of Egypt 1809- 1828),Translated by Zuhayr Shāyib, Volume 4 , Published by: Maktabat Madbūlī,Cairo, 1999. (Arabic).
-
- Ḥifnī, ‘Abd al-Ḥalīm. *al-Marāthī al-sha‘bīyah : al-‘adīd* (al adid : Oral Lamentation in upper Egypt) , Published by: al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo, 1982. (Arabic).
- ‘Abd al-Mun‘im, Īmān Muḥammad. *al-‘Urbān wa-dawruhum fī al-mujtama‘ al-Miṣrī fī al-niṣf al-awwal min al-qarn al-tasi‘ ‘ashar* (On the role of nomadic herdsmen in early 19th century Egyptian society), Published by : al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo,1997. (Arabic).
- ‘Umrān, Muḥammad. *Mūsīqā al-ghajar al-Miṣriyīn* (Music of the Egyptian Gypsies),Published by: al-Markaz al-Miṣrī lil-thaqāfah wa-al-Funūn, Cairo, 2006. (Arabic).
- Ibn Khaldūn, Abd al-Raḥman ibn Moḥammad. *The Muqaddimah* (An introduction to history),Princeton, N.J. ,Princeton University Press, 2005. (Arabic).
- Jomard ,Edmé-François. *Waṣf Miṣr*, (Description of Egypt , by France. Commission of sciences and arts of Egypt 1809- 1828),Translated by Zuhayr Shāyib, Volume 2 , Published by: Maktabat Madbūlī,Cairo 1999.
- (Arabic).
- Kindi, Muhammad ibn Yusuf Abu 'Umar. *Kitāb el wulāh wa, Kitāb* (Rulers and judges) ,Publisher By : Lajnat al-Ta’līf wa-al-Tarjamah wa-al-Nashr, Cairo 1966. (Arabic).
- Le Pér, M. *Waṣf Miṣr*, (Description of Egypt , by France. Commission of sciences and arts of Egypt 1809- 1828),Translated by Zuhayr Shāyib, Volume 2 , Published by: Maktabat Madbūlī,Cairo, 1999. (Arabic).
- Maspero, Gaston, ‘*alā al-aghānī al-sha‘bīyah fī Ṣa‘īd Miṣr* (Popular songs in Upper Egypt),Published by : al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo ,2000. (Arabic).
- Munīr ,‘Amr ‘Abd al-‘Azīz. “al-Mawsū‘ah al-ḥurrah fī tārikh wa-adab qabā’il Āl Arab fi Misr(Arabs in Sharkia, Egypt, between history and folk heritage), Arshīf al-Thaqāfah al-Sha‘bīyah lil-Dirāsāt wa-al-Buḥūth wa-al-Nashr ,al-Baḥrayn, Volum 6. 2009. P22-29. (Arabic).
- Rafī’i, 'Abd al-Rahman. *Kifāh ṣa‘b fī ‘ahd al-ḥamla al-faransīya* (The History of Egypt in Mujammed Ali Era), Published by: Dār al-Ma‘ārif,Cairo ,1989. (Arabic)

- Sha'lan, Ahmed Ibrahim. *Mawsū'at al-amthāl al-sha'bīyah al-Miṣrīyah* (Encyclopedia of Egyptian proverbs), Published by: Dār al-Āfāq al-ʿArabīyah, Cairo, 2003. (Arabic)



تصویر شیخ العرب ها؛ خوانشی در متون فولکلور شفاهی مصر

miral.mahgoub@asu.edu

رایانامه:

میرال محبوب الطحاوی

دانشیار ادبیات معاصر عربی، دانشگاه ایالتی آریزونا، آمریکا

چکیده

این پژوهش به بررسی تصویر انسان بدوی و شیخ العرب ها در میراث مردمی فولکلور از طریق تحلیل نمونه ای برگزیده از متون مردمی و شفاهی رایج عربی می پردازد. این نمونه ها شامل کتاب الأغانی و متون دیگر می شود. این پژوهش با هدف بررسی تصاویر پیچیده و مبهم انسان های بدوی در مصر و رصد چگونگی ترسیم تصویر شیخ العرب در میراث شفاهی و مردمی مصر پرداخته است که در طرز تفکر آنها نیز منعکس شده است. این پژوهش بر تعارض بین این تصویر و تصاویر ریتمیک منفی ای که تاریخ رسمی درباره عربها در مصر برجای گذاشته است، تکیه دارد. مورخان عرب و شرق شناسان تصاویری متناقض و مبهم از عرب و عربهایی که در مصر زندگی کرده و یا از آن در برهه های متعدد تاریخی عبور کرده اند، ترسیم کرده اند. همچنین به چگونگی درگیری طولانی فرهنگی این قبایل با ملت های کشاورز مستقر پرداخته اند. این درگیری بین بادیه نشینان و آبادی نشینان در برهه های طولانی تاریخی ادامه داشته است. برخی اشخاص تصویری بسیار سیاه را از ظلم عربها و فسادشان در سرزمین مصر ترسیم کرده اند. همچنین ملاحظات زیادی از شرق شناسان وجود دارد که بر ظلمی که جماعت بادیه نشینان در حق کشاورز مصری مرتکب می شدند، متمرکز شده اند ولی بر عکس همه اینها، میراث شفاهی مردمی تصویری متفاوت از عرب ها را در مصر منعکس کرده اند و فرهنگ مردمی مصر با تسامحی بیشتر از وجود عنصر عربی در بافت فرهنگی و اجتماعی مصر استقبال کرده است. همچنین تصویر شیخ العرب در اندیشه جمعی مردمی تصویری لزوما منفی نیست بلکه برخی اوقات قابل تقدیر و تقدیس است. در این پژوهش به بررسی برخی متون مردمی شفاهی از کتاب های عدید و اغانی و امثال با هدف تحلیل متون رایج و نیز بررسی نشانه های تصویر عربها در فرهنگ مردمی مصر می پردازم. همچنین به این خواهم پرداخت که چگونه اندیشه جمعی مصر تصویر شیخ العرب را در میراث نثری و مردمی ترسیم کرده و چگونه این تصویر با تصاویر ریتمیک و منفی ای که تاریخ رسمی درباره مبارزه سیاسی و اجتماعی بین کشاورزان و عربها در مصر به جای گذاشته است، متناقض است.

کلیدواژه ها: روایت شناسی عربی، تصویر شیخ العرب ها، فولکلور مصری، سنت های مردمی، میراث شفاهی، قبایل عربی، سرودهای مردمی تصویر عربها.

استناد: طحاوی، میرال محبوب، پاییز و زمستان (۱۳۹۸). تصویر شیخ العرب ها؛ خوانشی در متون فولکلور شفاهی مصر (به زبان عربی). مطالعات روایت شناسی عربی، ۱(۱)، ۹۲-۱۲۸.

مطالعات روایت شناسی عربی، پاییز و زمستان ۱۳۹۸، دوره ۱، شماره ۱، صص. ۹۲-۱۲۸.

دریافت: ۱۳۹۸/۱۱/۲۷ پذیرش: ۱۳۹۸/۱۲/۱۴

© دانشکده ادبیات و علوم انسانی دانشگاه خوارزمی و انجمن ایرانی زبان و ادبیات عربی